عنوان الكتاب : حماة الإســلام ج ١

المؤلــف : مصطفى نجيب بك

سنة النشـر : ١٩٣٤

رقم العهـدة : ٦٨٣١

الـ ACC : ٩٩٥٢

عدد الصفحات : ٢٢٠

رقم الفيلــم :

وزارة المعارف العمومية

حماة الإسلام

تأليف

المرحوم مصطفى نجيب بك

راجعه وهذبه

محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش بالوزارة

الجزء الأوّل

حق هذه الطبعة محفوظ للوزارة

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤

فهـــرس

الجزء الأوّل من كتاب حمـاة الإسلام

صفحة

إيضاح المراجع ... ... ه
فاتحة الكتاب ... ... ز
مقدّمة المؤلف ... ... ط
سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ١
شمائله صلى الله عليه وسلم ٤٤
كلمات من حكم رسول الله... ... ... ٤٨
تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم ٥١
سيرة سيدنا أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٥٩
سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٧٧
سيدنا عثمان بن عفان ٩٢
سيدنا على بن أبى طالب ١٠٧
العهد الذى أمر به سيدنا على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر ... ١٢٢
سيدنا الحسن ١٣٨
سيدنا عمرو بن العاص... ... ... ١٤٣
سيدنا معاوية ١٥٠
الوليد بن عبد الملك ١٦٠
سليمان بن عبد الملك ١٦٨
عمر بن عبد العزيز ١٧٤
هشام بن عبد الملك ١٨٣
الأمير موسى بن نصير ومولاه الفاتح طارق بن زياد ١٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

إيضاح

لقد تبين عند مراجعة أصل هذا الكتاب أنه اشتمل على العيوب الآتية :

(١) التحريف فى أعلام الرجال وأسماء الأماكن والبلاد .

(٢) الخطأ فى النقول سواء فى ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة والنصوص التاريخية .

(٣) الضعف فى التأليف والركة فى بعض العبارات .

(٤) الاستطرادات القليلة التى لا تمس إليها الحاجة .

(٥) استعمال كثير من الأخطاء الشائعة فى المفردات والعبارات ، وجلّ أن هذه المآخذ تضعف الثقة بالكتاب وتحول دون الركون إلى ما فيه مادة ولغة .

من أجل ذلك لم أدخر وسعا فى تلافى ذلك كله ، فأصلحت الأخطاء التاريخية بالرجوع إلى المصادر الصحيحة ، وهذبت بعض ألفاظه ، وقوّمت قليلا من عباراته ، فجاء بحمد الله صالحا ليطالعه المعلم والمتعلم مطمئنا إلى ما فيه تاريخا وعقيدة ولغة ، والله الموفق والمعين ؛

محمد أحمد جاد المولى

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأصلى على نبيه الكريم سيد الأنبياء والمرسلين . وبعد فقد رأيت أن المسلمين، فى تأخرهم وانحطاطهم وانشقاقهم وافتراقهم ، محتاجون إلى عظات التاريخ وعبر الحوادث السابقة أكثر من غيرهم ، مفتقرون إلى معرفة أسباب تقدم آبائهم وسبل نجاح أسلافهم ، غير محيطين بمفاخر عظماء رجالهم . تلك المفاخر التى يجب على كل مسلم أن يعرفها ويحفظها ويبذل جهده للأتيان بمثلها . وعلمت من سياحاتى فى بلاد الغرب ورحلاتى إليه أن أهم الأمور لدى أهله معرفة سير السالفين من عظماء الرجال الذين رفعوا للأوطان منارا عاليا، وشيدوا من المجد صروحا لا تنالها يد الحدثان، وأقاموا للعلم والفضيلة بنيانا وأى بنيان . وأن للقوم فى ممالك أوروبة حرصا شديدا على تلك السير فتراهم يباهون بها الأمم ، ويجعلونها لأبنائهم وناشئيهم الدروس الأولى والقصص التى بها يتفكهون ، ومنها يتعلمون .

فدفعتنى محبة الإسلام ورغبتى الأكيدة فى خير بنيه ورفعة أهله إلى دعوة كاتب من علية كتاب المسلمين ، ومؤرخ من كبار المؤرخين لوضع تراجم عظماء الرجال فى الإسلام تنبيها للغافلين ، وإرشادا للجاهلين ، وإحياء لتلك المآثر الباهرة، والسير العاطرة. فأجاب الدعوة حبا للخدمة العامة. واشترط علينا كتمان اسمه ليكون العمل خالصا لوجه الله الكريم .

وقد نشر الكثير من هذه التراجم فى اللواء تحت عنوان "حماة الإسلام" فكان لها من الدوىّ والرنين ما لم تنله أبدع رسائل المنشئين ، وأجود منشآت الكاتبين . مما حبب إلينا جمعها فى هذا الكتاب ونشرها بين الأمة الإسلامية الكريمة عساها إذا ذكّرت بالمجد القديم والشرف الغابر تحيا منها نفوس هى بحمد الله مستعدة للحياة .

والله المسئول أن يجزى المؤلف خيرا ويحقق ما يؤمل من عز وارتقاء للإسلام والمسلمين ؛

مصر فى ٤ من ذى الحجة سنة ١٣١٨

مصطفى كامل

مقدّمة المؤلف

إن الحكيم الذى ينصب نفسه لتربية الأمة يجب عليه أن يدخل بها فى كثير من أبواب الرياضات فيروضها على صنوف من مكارم الأخلاق ليتحقق من استعدادها الفطرى ، ويظهر له الوجه الذى تصبو إليه ، والموطن الذى تألفه ، والمقصد الذى تتوجه إليه . حتى إذا دعاها إلى الوُلوج معه من ذلك الباب الذى رآه صالحا لها لبّته طائعة مشتاقة .

وقد رأينا أن الذين تصبو أنفسهم لوعظ أمتنا هـذه ونصيحتها قد قلبوها على أوجه كثيرة من التربية والتهذيب فأخذوها بالرفق والدعوة للخير . ثم واجهوها بالزجر والإعنات . وضربوا لها الأمثال . وحذروها عواقب ما هى فيه ودعوها إلى محاذاة الأمم ومجاراتها . وأهاجوا فيها نار الغيرة وقدحوا لها زند الشوق لكل فضيلة . ثم رأينا ورأوا أنهم على طول هذا الزمان لم يصلوا إلى كل ما أرادوا ، بل قصرت بهم النتائج عن كثير من المبادئ الشريفة التى نهجوها وأرادوها .

تحقق لهم أنهم كلما اجتهدوا فسدّوا عليها بابا من أبواب الشر فتح أهل الشر عليها أبوابا من المفاسد ، ولم يأمن فيها العثار ومزلة القدم والحيد عن جادّة الصدق إلا قليلهم .

ظهر لهم أن الأمة لم يكن لها نقطة وسطى ترتكز عليها . بل هى فى مهب ريح الأغراض سائرة مع كل قائد . وخاصة لو عزز الداعى لها دعوته بالبهتان الذى أصبح منطليا على أكثرها فما أسرع أن تلبيه إذا دعاها وتضافره إذا سألها .

ثبت لهم أن فى الأمة عددا عظيما نسوا ملتهم ودينهم ووطنهم، بل نسوا الله فأنساهم أنفسهم . فلا بد لهم من مذكر يقرع أسماعهم بصوت آخر يكون له فى القلوب رنة ، وفى النفوس صدى يبعث فيها ميت الهمة .

تبين لهم أن فى حواس الأمة خَدَرا جعلها لا تتأثر لمصابها . كصاحب العاهة الذى تعيره الصبيان بها فيتألم منهم فى أول أمره حتى يضرب قريبهم ويشتم بعيدهم ريثما يعرف أن الناس تسامعوا بعاهته فاشتهر بها فيسكن ويضحك على نفسه كما تضحك الناس منه .

ولا عجب فى هذا لأن فقدان الفضائل وارتكاب أضدادها ، وسلوك الطرق المبتدعة، وانتقاص الأخلاق ، ونسيان العادات الجميلة، والإفراط فى أسباب الحضارة من الرياش والترف ، والتناهى فى عدم القناعة بدّل الخلق من أصله . وحوّل العالم بأسره. وكأنما خلق جديد. ونشأة مستأنفة. وعالم محدّث .

نعم يجب على الناصح أن ينادى فى الأمة بذلك الصوت من غير أن يدعوه حالها لليأس . أو يسدّ عليه باب الأمل . أو يقطع عنه طريق الخير . أو يمانعه فى وصول النفع . فإن أبواب الصلاح لا تحصى ولا تستقصى يعرفها الناصح الأمين . والواعظ المشفق يرجو بها تحقيق الخير والنفع إن شاء الله .

وإن من أبواب التربية التى لم تقرع. وطرقها التى لم تسلك، دعوة الأمة للنظر فى ماضى أمرها وأولية شأنها لتعلم من هى، عساها تخجل من أن تكون خاتمة سوء لذلك المفتتح الشريف ، وتأسف على حالها من كونها أصبحت بمنزلة السفيه ولى ملكا فلم يحسن سياسته، ورزق سعة من المال فلم يدبر أمر تنميته .

هذا الباب من أحسن الأبواب التى تثقف أفكار الأمة، وأقرب ما تتربى على خيرة طباعها ، فإن تذكارها بمجدها القديم . وتمثيل عزها السالف لها وتشخيص مجدها الشامخ أمام عيونها يدعوها بلا شك للتنافس بخلالها الحميدة السابقة .

أحسن رادع للإنسان عن شهواته أن يلتفت وراءه فيرى فى أمته وملته العلماء والحكماء والعظماء والحكام والقواد عاشوا ولا شغل لهم إلا مجدا أقاموه، وعزا شادوه ، وشرفا حفظوه . وأكبر مسهل له لاحتماله الضيم والذل جهله بحالة نفسه ونسيانه مجد آبائه وأجداده حتى تستّرت عنه كرامة أخلاقهم ، وتحجّب عنه جميل طباعهم ، ولم يذكره مذكر بسابق أعمالهم الشريفة . إنه لا يأنف أبدا من إتيان الدنيئة ، وعمل كل ما يخالف تلك الطباع الجميلة والأخلاق الطاهرة .

لذلك ترى الدهاة من الفاتحين — وبخاصة رجال الممالك الغربية الآن الذين لا يغفلون عن تجربة، ولا يغضون عن فرصة — إذا فتحوا بلدة إسلامية أو احتلوها تسلطوا على أهلها فأنسوهم دينهم وعاداتهم ولغتهم وتاريخ حياتهم ومجدهم . واستبدلوهم بذلك شيئا آخر. فتراهم إذا نسوا تاريخ حياتهم وأشربوا فى قلوبهم تاريخ حياة غيرهم ذهب كل فريق منهم بما اشتهى وشبت النفوس على ما سيقت إليه ، وبدت على الأمة أخلاق منكرة مبتكرة بعوائد غريبة لا تنسب بالمرة لسوابق عاداتها ، وتقرّبوا من تلك الأمم الطارئة بكل طريقة، وابتعدوا عن ذلك الأصل الشريف الذى هم منه .

ثم يتبع ذلك تقلص ظل الدولة الحاكمة وقلّ حدها ووهن سلطانها . وتتداعى للتلاشى والاضمحلال وينتقص من عمرانها ويندرس من سبلها ومعالمها بمقدار انحراف رعيتها عن عاداتها الشريفة .

ثم تتناهى الأمة فى الفجور وتتفانى فى البغى والضلال حتى تعود باللائمة على أصل دينها وعاداتها وأخلاقها. تقول، وهى لا تستحيي من الله ولا من الخلق ولا من نفسها، إنها ما أخذت إلا من جهة تقصير دينها وتقاليده عن مقتضيات الحياة المدنية ومستلزماتها، وأفرادها يجهلون غاياته البعيدة فى المآخذ والمتارك، يودون من صميم أفئدتهم أن لو استبدلوا بطباعهم وعاداتهم شيئا آخر ليخرجوا من ذلك الجنس كما هو واقع الآن من بعض أهالى هذه البلاد المصرية، ووقع من قبلها فى كثير من بلاد الإسلام كالأندلس وغيرها .

عذر أولئك أنهم يغدون و يروحون بين رجلين : إما عدو لهذه الملة يدعى عدم ملاءمة دينها للمدنية الجديدة كبعض فلاسفة هذا الزمان و إما جاهل تاريخ حياتها فلا يعرف منه شيئا لا خيرا ولا ضرا كأغلب شبان هذا العصر .

لذلك هم يفرون من النسبة لهذا الدين و يتجنبون القرابة لأمته وملته لأنهم أقل الناس دراية به، ومعرفة بفضائله. لا يعلمون، وهم أهله، مكرمة له يعدها المنتسب منهم إليه مفخرة إذا نازعه منازع فى الانتساب إليه .

ينبغى لهم أن يتألموا من أن يكونوا مسلمين لأنهم لا يدركون للمسلمين فتحا أبلوا فيه بلاء حسنا، ولا يعرفون لهم حربا ولا ضربا، ولا يتحققون فى أى بقاع الأرض نشأ المسلمون، وفى أى جهة كانوا شرقا أم غربا . ولا يحصون لهم عددا ليعلموا أنهم — وهم على قلتهم — فاجئوا حصون الممالك البعيدة ومعاقل العواصم النازحة فأنزلوا حماتها من عروشهم و بثوا فيها معالم دينهم وصيروها حنيفة بعد أن كانت جاهلية .

كيف لا يأنفون من المسلمين وهم يعتقدون أنهم قوم نشئوا وسط البداوة لا يعرفون غير جوب القفار وقطع الأودية . عاشوا فى جهالة وماتوا فى جهالة .

لا يعقلون أن جميع مكارم الأخلاق إنما هى منتزعة منهم مأخوذة عنهم وأن ما يدعيه المدعى من الخلال الحميدة كالدعة والرحمة والشفقة والعدل والإنصاف والإحسان إنما هو مجاز بالنسبة له، حقيقة بالنسبة إليهم، وأن هذه الأمة جاهلية كانت أو حنيفية لم تفارقها مكارم الأخلاق كحفظ الجار والجوار ومراعاة الشرف والذمة و إحقاق الحق وقول الصدق ومحاسن الأعمال و جميل الخصال .

من يعلّمهم أن ملتهم هذه هى أول من تنافس أهلها فى الخير وتحدّوا غيرهم بخلال الكرم كالعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكَل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد و بذل الأموال فى صون الأعراض وتعظيم الشريعة و إجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحدون لهم من فعل أو ترك وكرامة أهل الدين والحياء من الأكابر وتوقيرهم و إجلالهم والانقياد إلى الحق مع الداعى إليه و إنصاف المستضعفين والتبذل فى أموالهم والتواضع للساكين واستماع شكوى المستغيثين والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد .

من لهم بأن يتحققوا أن ملتهم هذه نشأت على هذه الفضائل التى هى أجمل وأكمل خلق السياسة حتى استحقوا بها أن يكونوا ساسة للأمم التى تحت أيديهم، ولم يوجد ذلك فيهم سدى ولا عبثا، وأن الله قد تأذن بوجوده فيهم لوجود علاماته فى قبيلهم .

من يدلّهم أن رجال الدين الإسلامى كانوا خير مجتمع لتأسس قواعد الحرية والإخاء والمساواة، وأن أهلهم الذين جابوا القفار وقطعوا الأودية وركبوا ثبج البحر لفتح باب العلم والانتفاع به، وأنه لم يزهر فى دولة إزهاره فى دولتهم ، ولم يعتر كعزته فى سلطانهم حتى تقوت حجته وانتصر لواؤه وأذعن الناس لقوته ، وأشرقت عقولهم بنور برهانه .

لا بد لهم من مذكر بذلك كله ليعلم المتوسدون سرير الملك والحاملون للواء الدولة والمباشرون للأمر أنهم لم يتطاولوا لهذه المراتب عن تطفل ولم يرثوها عن كلالة وليتحققوا أنهم أهلها وأن الفضائل التى أخذت فى الذهاب عنهم والملك الذى صار الأعداء يرتقبون زواله من بين أيديهم إنما سببه جهلهم بتاريخ حياة قادتهم وسادتهم ، وعدم علمهم بفضيلة أصولهم وعشيرتهم ، وخضوعهم لمن لا يناهضهم فى الشرف والنسب ، وتجاذبهم حبل الفخر والمجد مع من لا يدانيهم ، وحبهم تقليد سواهم ، واستبدالهم بعادات أممهم وأجيالهم عادات غيرهم .

لهذا قد استخرنا الله سبحانه وتعالى فى أن ننسق من أخبار هذه الأمة الشريفة المكرمة شيئا نجعله مسطرا على صفحات (اللواء) المحمود مندمجا فى تاريخ عظمائها مبتدئين بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين بعده. ثم برجال الدولة الأموية ممن قاموا فى بدايتها ورفعوا لواءها ورايتها وأظهروا فى الفتوح آيتها وأتموا بالوقوف على قدم الخير غايتها — ثم ما كان فى الدولة العباسية من الخلفاء والقواد والعظماء الذين تولوا أمورها فى فتح وحرب وقتال وضرب وتدبير فى تدوين الدواوين ، وإعلاء كلمة السلاطين، وما كان من نشر الحضارة واتساع الملك . ثم ما كان من أعاظم رجال دولة الموحدين والملثمين . ثم ما كان من مدنية الدولة الأموية

بالأندلس ، وعجائب خلفائها فى الآراء والأفكار . ثم ما كان من الدولة التركية ، وما كان من استطالتها على جميع النواحى والأمصار فى جميع الأقطار معقبين ذلك بما نراه من الحوادث صحيح العلل والأسباب فاتحين للقارئ فى ساحة الاعتبار بابا يالله من باب ، كاشفين عن بصيرته غشاوة الحجاب بسر ما فى هذا الجراب :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

ولا عار فى ذلك ولا شنار فإن هذا الباب لا يستحى أن يأخذ منه الملوك ونسأل الله سبحانه وتعالى أن نبلغ بهذا العمل ما نرجوه من الخير والنجاح وترزق الأمة بسببه بصيرة تتراجع بها لأولية أمرها فترى ما كان محتفّا بها من سياج العظمة، وتتحقق ما كانت متصفة به من الفضائل والكمال فتتشوق نفوسها لتجديده، وإلا فهى مستحقة لما هى فيه . فإنه إذا كان للعقاب أوقات مناسبة ولقبول الأذى نفوس مستحقة فأحق أمة بعقوبة الذل أمة ذات مجد قديم لا تستحيي من إضاعة مجدها .

عساها لو نظرت فى ذلك تجتهد فى تهيئة نفسها لقبول العدالة التى تحتاجها هذه الرتب السامية وتستلزمها حاجتها فإن من أهمل حق نفسه ولم يطلبه فغيره فى إيصاله إليه أبطأ وأشد إهمالا .

عساها تنظر فتجد فيها بقية من حميرة الملك والسلطان الذى لا يحتاج تأييدهما إلا إلى الاتفاق والوفاق والالتفاف حول الراية الإسلامية فتهب من رقدتها وتعمل فيما فيه الخير والصلاح لنفسها .

والله المعين على هذا العمل الذى لا نقصد به إلا وجهه الكريم ، و إعادة سالف الذكر الجميل لأفعال حماة دينه القويم ، ودعوة إخواننا إلى النظر للقام الكريم الذى كان لهم فى الزمان القديم وما صاروا إليه من الانقياد والتسليم فقد أشفى الحال على الخطر ، وأصبح ذئب المغرب متهيئا للافتراس ، مستديم النظر حديد البصر ، ونحن إلى التعاون والتناصر فى حفظ هذا الملك مفتقرون ، فإن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون .

سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

جعل الله سبحانه وتعالى النبوّة فى بيت واحد لا يشترك فى فضيلتها مع أنبيائه أحد . قال تعالى : "إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم" .

فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو المختار من ذرية سيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم عليهما السلام من أكرم بيت من مضر خلق الله الخلق فجعله فى خير خلقه . وجعلهم فرقا فصيره فى أحسن فرقة . و بيوتا فأحله فى أرفع بيت وأسماه وأشرفه .

(ابن عبد الله) المعروف مكانه من بنى عبد المطلب . من أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا : (آمنة) بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زُهْرة نسبا وشرفا ، تزوج بها عبد الله ونوره يتلألأ بين عينيه كالغرة البيضاء .

ما لبث عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات وأمه حامل به حتى كانت الليلة التى تمخض بها الزمان ، وتكهنت بها اليهود ورصدتها الرهبان ، الليلة التى أراد الله أن يخرج الإنسان فيها إلى نور الفلاح من ظلمات الجهالة ، الليلة التى ابتهجت فيها الحظائر القدسية وازينت فيها السماء فوق زينتها بإشراق الغزالة ، استل فيها سيف الله من قرابه ، وانتشل فيها سهمه من إهابه ، وظهر ليثه من غابه ، وهطل غيثه من سحابه ، فتنادت الرهبان بظهور أكرم مولود فى هذا الوجود .

ولد صلى الله عليه وسلم فى الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول : ٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام فى زمن كسرى أنوشروان أشهر ملوك الفرس ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم حاكيا عن نفسه : "ولدت فى زمن الملك العادل" .

ولد صلى الله عليه وسلم يتيما ولم يرث إلا خمسة جمال و بعض لقاح وجارية فتجافت المرضعات عنه إلا حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ظئره لما أراد الله من تشريفها فدرّ لبنها وقد جف ، ولبن شارفها على حين لا يجد إنسان قطرة فى ضرع ، وأخصب الله بلاد بنى سعد ولا يعلم أحد من خلق الله أجدب منها ، وهذا من إرهاصات نبوّته صلى الله عليه وسلم .

شب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يكلؤه و يحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته ، وأن يكون أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأعطفهم جوارا ، وأوجههم خَلْقا ، وأربحهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش ، والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ير كمالها فى بشر .

وكيف لا يسمونه بالأمين وما رأوا صبرا كصبره ولا حلما كحلمه ولا كوفائه ولا كزهده ولا كجوده ولا كنجدته ولا كصدق لهجته وكرم عشيرته ولا كتواضعه ولا كعلمه ولا كحفظه ولا كصمته إذا صمت ولا كقوله إذا قال ولا كعجيب نشأته ولا كقلة تلوّنه ولا كعفوه ولا كدوام طريقته وقلة امتنانه .

توفيت والدته فاحتضنه جدّه عبدالمطلب فكان يجلسه معه فى ظل الكعبة بين أعمامه ، ثم مات فكفله عمه أبو طالب ، وكان كريما غير أنه كان فقيرا بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان حاله صلى الله عليه وسلم كحال أحد بنى عمه ، وصبية قومه ، و يزيد عليهم اليتم بفقد الأبوين .

عاش بين قومه على هذه الحال بغير مؤدّب ظاهر يعتنى بتثقيفه ، أو مرب باد يقوم بتهذيبه ، سوى طهارة العقيدة وشعار النفس الشريفة المشتملة على معانى الأدب ، التى يجد بسببها فى وجدانه الكريم شعورا بالفضيلة وتلبية لندائها ، وعشراؤه أهل الوثنية وعبادها ، وخلطاؤه أولياء الأصنام وخدّامها . وهو متحل بالأدب الإلهى الذى يبعد عن أن تتزين به نفوس الأيتام والفقراء ، خصوصا مع بعده عن معتقد القوّام عليه . كل هذا ليتجلى للناس مظهر معنى قوله للناس : "أدّبنى ربى فأحسن تأديبى" .

خرج عمه إلى الشام فى ركب للاتجار فأخذه معه ، فلما نزل الركب بُصْرَى وفيها (بحيرا الراهب) علم أهل النصرانية وإمامهم فى علمهم الذى يتوارثونه كابرا عن كابر ، صنع لهم طعاما ونزل من صومعته ، ولم تكن تلك عادته ، فلما أكلوا سأل بحيرا النبى صلى الله عليه وسلم عن أشياء فى حاله ونومه وهيئته ونظر لعلامات فى بدنه الشريف ، ثم أوصى عمه أبا طالب أن يسرع فيقدم به مكة وحذره اليهود .

تحدّث الناس بكرم أخلاقه ، وحسن خلقه وعظيم أمانته وصدق حديثه فعرضت عليه خديجة بنت خويلد أن يخرج فى ما لها للشام ، ومعه ميسرة غلامها ، فرأى ظلال الغمام تظله من الشمس وهو يسير ، ثم شاهد من أمانته ما شاهد ، فلما قدما أخبر سيدته بأمانته وطهارته و يمن طائره و بما رآه

وما ظهر له من البركة وكثرة الأرباح وسهولة الأمور . وكانت خديجة امرأة حازمة فرغبت فيه بسبب ذلك ولقرابته ومكانته فى قومه وذكرت ذلك لأعمامه فخطبها له عمه وهى أم ولده كلهم إلا إبراهيم فإنه من مارية .

كان فى هذه الاستزادة فى الرزق مقنع لطالب دنيا تروق فى عينه ، ويغتر بزخارفها ؛ رفه فى العيش ، وعون على بلوغ الأمل ، ولكن الحال غير هذا ، وكلما تقدّمت به السنّ نما فى قلبه حب الخلوة والانفراد إلى أن تجلى عليه النور الإلهى ، وانكشف له العالم بأجمعه .

ظهر الهدى الإلهى فى عمله صلى الله عليه وسلم ، فأزال الفتنة من بين قريش ، وقد كاد تنازعهم يفضى إلى تخاصم عظيم فى اختصاص قبيلة منهم فى وضع الحجر عند بناء الكعبة وتحكيمه عليهم ليقضى بينهم فيه ، فاستدعى ثوبا وأخذ الحجر فوضعه فيه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا حتى بلغوا به موضعه فوضعه بيده وبنى عليه .

بلغت سنه أربعين سنة إلا ستة أشهر ، فبدأت الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، وحبب الله إليه الخلوة فكان يجاور فى حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى أهله فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وجاءت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم الله العباد بكشف ما غاب عنه من مصالح البشر ، فنزل عليه جبريل فى غار حراء بقوله تعالى : "اقرأ باسم ربك الذى خلق" كما وردت به الأخبار الصحيحة ، وعاد وأخبر خديجة الخبر وقال : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا . والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل

ابن عمها ، فقالت له خديجة : يا بن عمّ ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا بن أخى ما ذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزّل الله على موسى ، "ياليتنى فيها جذع" ، يا ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . قال : "أوَ مخرجىّ هم ؟" قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا .

ثم فتر الوحى فشق عليه ، ثم عاوده بقوله تعالى : "يأيها المدثر قم فأنذر" فقام يدعو الناس إلى الإيمان بالله تعالى ، فأوّل من آمن به من النساء خديجة ، ومن الرجال أبو بكر ، ومن الصبيان على ، ومن الموالى زيد . ثم تتابع الوحى وتتابع دخول الناس فى الإسلام . وكان أبو بكر محببا سهلا ، وكانت رجالات قريش تألفه فأسلم على يديه من وثق به .

دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، وفشا الإسلام وهم ينتحون به ويذهبون إلى الشعاب فيصلون . وأمره الله أن يصدع بما يؤمر ، فنادى فى الناس بأمره ودعا إليه (وكان بين ما أخفى أمره واستتر به وبين أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه) .

قام بدعوته وحده على فقره وضعفه ، وقارع أعداءه بالحجة ، وناضلهم بالدليل ، وأبدى لهم نصحه وزجره ، وذكر آلهتهم بالسب وعابها . وكل من حوله ممن أسلم مستخف . وأعداؤه يردّون دعوته وهم بادون ظاهرون ، ويرفضون رسالته وهم باغون معتدون ، سواء العامة منهم والخاصة يقولون : "لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" . وكيف يسلم أولئك المغرورون بالعزة والسلطان فى قبيلهم لدعوة فقير أمى لا ينبغى أن يتطاول إلى هذه المقامات بالممكن من الكلام ، فكيف باللوم والتعنيف وسب الآلهة وتضليل المتعبدين بها !

أجمعوا على خلافه وعداوته، وقام عمه أبو طالب دونه محاميا يحدب عليه ويمنع، وهو ماض على أمر الله لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش ذلك مشى رجال من أشرافها إلى أبي طالب يقولون له: إن ابن أخيك سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا و بينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا و ردهم ردا جميلا، فانصرفوا و رسول الله على ما هو عليه مظهر لدين الله داع إليه، فهالهم الأمر حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وحض بعضهم بعضا، ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى يقولون الذي قالوه أولا، ويخبرونه بأنهم قد استنهوه ابن أخيه فلم ينهه، وأنهم لا يصبرون على هذا الأمر العظيم فإما أن يكفه عنهم أو ينازلوه.

أصبح أبو طالب في حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم، و بين خذلان ابن أخيه، فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الأمر مالا يطيق، ولكن القوة الإلهية أيدته، فأيأسهم من نفسه وقال لأبي طالب: يا عماه لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه، وشمل الإشراق النبوي عمه أيضا، فقال: يا بن أخي قل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا. وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم و يفتنونهم في دينهم، وافترق أمر قريش؛ فتعاهد بنو هاشم و بنو عبد المطلب مع أبي طالب على القيام دون النبي، واشتد العذاب على المسلمين، فأمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهاجروا وتتابع المسلمون حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلا.

صار النبي غريبا في شعبه وقومه بعيدا عنهما، يحول بينه و بين عشيرته ما هو أعظم من كل عظيم، وهو مجد على تقويم عوجهم وهدايتهم، وهم أبعد من أن يفقهوا دعوته أو يعقلوا رسالته، وطفقوا يرمونه عند الناس

ومن يفد على مكة بالسحر والكهانة والجنون والشعر. يرومون بذلك صدهم عن الدخول في دين الله، وجلسوا للناس في المواسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه منه وذكروا له أمره، فأذاعوا الدعوة للدين من حيث أرادوا كتمانها وأعلنوا خبرها بين العرب وهم يبعدونهم عنها "والله مخرج ما كنتم تكتمون".

ثم اشتد الأمر وأغرت قريش سفهاءها برسول الله، وانتدبوا جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والإيذاء، وتعاقدوا على قتله في اللات والعزى، ولم يبق رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمه الشريف، ورسول الله ظاهر بمظهر الحكيم في تربية قومه بحال يدهش المشاعر، إذ يجدون منه سلطانا قاهرا في حكمه، عادلا في أمره، شديد الحرص على مصالحهم رءوفا بهم في شدتهم، رحيما في سلطتهم. وكيف لا تتحير الحواس، وهم يرون قوة من ضعف، وسلطانا من عجز، وعلما من أمية، ورشادا من منبت جاهلية.

حارت قريش في أمرها، تعجب من صبرها على تسفيه أحلامها وشتم آبائها وسب آلهتها و إهانة دينها، فاجتمعت أشرافها في الحِجْر يتشاكون الصبر على هذا الأمر، فطلع عليهم رسول الله فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر طائفا بالبيت، وكلما طاف غمزوه ببعض القول فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش "أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح" فأخذت القوم حالة حتى ما منهم إلا كأنما على رأسه طائر واقع وأشدهم فيه وطأة صار يرفؤه بأحسن ما يجد من القول: (يقول انصرف يا أبا القاسم ما كنت جهولا)، ثم يعودون على أنفسهم باللائمة، ويذكرون ما بلغ منهم وما بلغه فيهم وتركهم إياه، فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا له وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا من عيب آلهتهم، وهو يقول: نعم. فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه،

فإذا أبو بكر دونه وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله . ووقف أبو جهل لرسول الله وشتمه ، و بلغ حمزة فضربه حتى شج رأسه .

أرادت قريش أن تخاصمه بعد ذلك بالحجة وتكلمه بالدليل ، فبعثت إليه عتبة بن ربيعة وكان سيدا فى قومه فقال : إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جمعهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أمورا لعلك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله : قل يا أبا الوليد . قال : إن أردت بالذى فعلت مالا جمعناه لك ، أو شرفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك ، وإن كان يأتيك رئىّ تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب و بذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . قال : أفرغت يا أبا الوليد . قال : نعم. فأسمعه آيات من سورة السجدة وسجد . فقام عتبة إلى أصحابه بغير الوجه الذى ذهب به ، فقالوا له : ماوراءك يا أبا الوليد؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا ماهو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، أطيعونى يا معشر قريش وخلوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتِ نبأ . قالوا : سحرك يا أبا الوليد . فقال : لنجمع أشراف كل قبيلة عند ظهر الكعبة ونبعث إليه ، ففعلوا فجاءهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : إنا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه الذى أدخلت إلى آخر ما قال له عتبة . فقال : مابى ماتقولون ، ماجئت بما جئت لأطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن بعثنى الله إليكم رسولا وأنزل علىّ كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم . فألجمهم بهذا الخطاب وأفحمهم بهذا الكلام .

فعلت قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا ما فعله كفار كل زمان مع أنبيائهم ، فتطلعت لما هو أكبر كما هى العادة فى شره العقول ، وأخذت تفكر وتقترح وتطلب أشياء قضت الحكمة الإلهية بأن تكون مستحيلة فى ذاتها : تطلب منه تسيير الجبال عن بلادها لينبسط ثراها ، وتسيير الأنهار فيها لتخصب أرضها . وتكلفه أن يأتى بملك معه من السماء فيصادقه على ما يقول . وتتهكم عليه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء أو يأتيهم بالملائكة قبيلا . أو تكون له جنات ، وقصور ، وكنوز من ذهب أو فضة تغنيه عما يبتغيه . فانصرف رسول الله إلى قومه آسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من طاعة قومه .

إن الناظر فى هذا الهذيان يحكم بأن الذى منع العرب من الإقرار هو الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، لأنهم يرون فى كل وقت و يسمعون فى كل حال من أحواله عجبا لم تجر به العادة أبدا ، وفيهم العقلاء وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل ومن يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك.

تواتر الخبر بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها و بعيدها لإبطال دعواه وتكذيبه فى الأخبار عن الله سبحانه وتعالى . فجاءهم رسول الله من الطريق الذى يشمخون فيه بأنوفهم ، و يتنافسون فيه بثمار عقلهم ونتائج فطنتهم وذكائهم ، و يدعون أن جميع الناس لهم فى كل أبوابه تبع ، ألا وهو طريق البلاغة والفصاحة . جاءهم بالقرآن وفيهم الشاعر المفلق والخطيب المصقع وهم أحكم خلق الله لغة وأشدهم عدة ، والكلام سيد عملهم فدعا القريب والبعيد منهم لتوحيد الله وتصديق رسالته يحتج عليهم وعلى غيرهم بسورة من ذلك الكتاب الذى

لاريب فيه. ينذرهم بقتل عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ويدعوهم صباح مساء أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة منه.

كيف يمكن أحدا سوى الله العليم الخبير أن يشترط فى التحدى الشرط الذى اشترط "قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" ولو كان من عند غير الله لكان من غلبة الظن عند من له شيء من العقل ألّا تخلو الأرض من صاحب قوة مثله .

عجزوا، وكيف يصابون بالعجز ويرمون بالجبن مع كثرة كلامهم واستفحال لغتهم وسهولة ذلك عليهم ووفرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، ويرضون بالقتل المستمر فى أنفسهم وذوى قرابتهم وتسفيه أحلامهم وتفسيق معتقداتهم وكسر أصنامهم . أما كان الأولى بهم أن يأتوه بسورة واحدة فينقضوا قوله ويفسدوا عليه أمره ، ويسرعوا فى تفريق أتباعه عنه صونا للنفوس الشريفة المبذولة والخروج عن الأوطان العزيزة المحبوبة وإنفاق الأموال الجزيلة . إن هذا لبعض ما يعرفه عامة الخلق، فكيف بقريش التى لها من جليل التدبير وصدق الرأى والعقل ما ضربت به الأمثال !

ما هذا العجز الظاهر وقد احتاجوا لما عندهم من الكلام ، والحاجة تبعث الحيلة فى الأمر الغامض المفقود ، فكيف بالظاهر الموجود ! محال أن يطيقوه ثلاثة وعشرين عاما على الغلط فى الأمر الجليل . ومحال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه .

أى دليل على دعوى النبوّة بعد هذا وأى برهان على صدقه صلى الله عليه وسلم أشد من أن يروا يتيما فقيرا أميا لا عون له ولا جاه وقد تربى بينهم

وهو من أول نشأته وعقله متأثر بسماع ما يسمعه ممن يخالطه منهم من حديث الوثنية ، فإذا به مبغض لها من مبدأ عمره من قبل أن يبلغ مبلغ الرجال، من قبل أن يكون لفكره ونظره فيها مجال ، من قبل أن يرجعه عنها الدليل ويصرفه عن ضلالها البرهان ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ثم يكون منه الذى كان .

يرون رجلا منصرفا بطبيعة الحال عن مناصب الملك والسلطان متأبيا عنها ، وقد عُرضا عليه (ومقابلة القائل بذلك بالإعراض والاعتراض) خاليا من الجند والمال والجاه والعون، ثم ينهض وحيدا فريدا داعيا للتوحيد والاعتقاد بالله ، وهو يعلم منهم قدر تعظيمهم لأوثانهم ومقدار تنطسهم فى زندقتهم ومناوأتهم بمعبوداتهم. أليس من فكر يفكر فى هذه القوّة التى سمت بنفسه إلى أعلى عليين ، فجعلته داعيا مرشدا ولو كره الكافرون ؟

يرون داعيا أوذى بضروب الإيذاء ، وأقيم فى وجهه ما لا يذلل من الصعاب، وعناية الله محيطة به. ويرون المستجيبين له أخرجوا من ديارهم تسفك منهم الدماء ويفتنون وهم لا يفتنون .

يرون عارفا بالله كما يجب أن يعرف، مدركا من أمر الدار الآخرة ما ينبغى أن يدرك، مع كمال فى العقل ونور فى البصيرة فصل بهما اللذات والآلام فى هذه الدنيا وطرق الأجر والعقاب عليهما، وجعل للإنسان شعورا بيوم بعد يومه هذا، وكل هذا الضرب من الكلام بعيد عن التخيل والفكر، ولا بد له من هدى إلهى وفتوق فى البصر والبصيرة يؤديان الى مشاهدة قدرة الله وآياته فى هذه الأمور الغامضة عن العقول الساذجة .

يرون حكيما جاء لكل طائفة منزيلا للرجس القائم بها مخلصا لها من معارض الشرك المشتمل عليها ، يأمر الوثنيين بترك الأصنام والأوثان ، والمشبهة بالانصراف عن الأجسام ، والثانوية بالتوحيد ، والطبعيين بالنظر إلى ماوراء حجاب الطبيعة ، وأهل السيطرة بترك العقوق ليعلمهم أنهم لا يتفاوتون عن كل نفس إلا بما فضل الله من علم وفضيلة "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

يرون ناصحا يأمرهم بصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم واحترام الدماء البشرية والأعراض والرحمة بالضعفاء ، وينهاهم عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . ثم يرون أنفسهم عبادا للأصنام وهو يعبد الله يأكلون الميتة وهو بعيد عنها ويأتون الفواحش وهو برىء منها ويقطعون الأرحام وهو يصلها ويسيئون الجوار وهو يحسنه ويسبون النساء ويسلبون الأموال وهو يأمر بالكف عنهما فكأنهم كانوا من عمى الجهالة بحال لا يكادون يفرقون بها بين هاتين المنزلتين (الحق والباطل ، والحسن والقبيح) وهو بهذا الظهور على ما هم عليه من صدق الأحلام "إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء" .

ثم رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلوا بلدا (الحبشة) أصابوا به مأمنا وقرارا ، وأن النجاشي أكرم من لجأ إليه منهم ، وأن عمر بن الخطاب أسلم وأعز الله الإسلام بإسلامه ، وهو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأن الإسلام أخذ يفشو فى القبائل ؛ فاجتمعوا وأتمروا وتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ألا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يكلموهم ، ولا يجالسوهم . وكتبوا الصحيفة ووضعوها فى الكعبة توكيدا لأنفسهم وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبى طالب

ابن عبد المطلب فدخلوا معه فى شعبه إلا (أبا لهب) وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا لا يصل إليهم شيء إلا سرا مستخفيا به من أراد صلتهم ، ورسول الله يدعو قومه ليلا ونهارا سرا وجهارا مناديا بأمر الله لا يتقى فيه أحدا من الناس ، وحال رجال الله بينه وبين ما أرادت قريش من البطش به ، وإن همزوه أو استهزءوا به أو خاصموه نزل القرآن بأحداثهم وفيمن نصب لعدواته منهم .

ثم كشف الله لنبيه عن أمر الصحيفة وأن الله سلط الأرضة عليها فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لأبى طالب . فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم . فخرج إلى قريش فقال : يامعشر قريش ، إن ابن أخى أخبرنى بكذاوكذا (وذكر ما قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم) فهلموا إلى صحيفتكم فإن كانت كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها ، وإن كان كاذبا دفعت إليكم ابن أخى . فقال القوم : رضينا ، وتعاقدوا على ذلك . ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شرا وصنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ما صنعوا .

ثم أسرى برسول الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس (إيلياء) فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بها عجبوا وقالوا له : وما آية ذلك يامحمد ؟ فدلهم على أشياء فى الطريق وأمارات ظاهرة سألوا عنها فوجدوها كما قال ، ولكن أبى الله أن يصدقوه وهو صادق أو يعلموا أنه على الحق وأنهم كاذبون .

ثم أقام رسول الله على أمر الله محتسبا مؤديا إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والإيذاء والاستهزاء، وقريش تنتقل معه فى طريق الأذى من باب إلى باب وتنتقلب من فكر إلى فكر؛ فمن المجاهرة بالعداوة والمكاشفة بالبغضاء إلى النفاق والرياء ونيل منى النفس بالكيد والمداهنة باقية على ما فيها من الظلم والعسف والقسوة والجور وضروب الشرور والأسواء. شق عليها أن ترى مثل أبى بكر يقرأ القرآن ويبكى ، فما زالت به حتى ضيقت عليه مكة وأجلته عنها مهاجرا خوف الفتنة وقطعا لذريعة انتشار الإسلام بين العرب .

ثم ماتت خديجة وأبو طالب فى عام واحد فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموتهما ، ونالت قريش فيه من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب، فخرج رسول الله وحده إلى الطائف يلتمس النصرة من (ثقيف) فلما عمد إلى سادتهم استهزءوا به وكذبوه فعاد إلى مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه وأصحابه مستضعفون، وهو يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل فأتى (كندة) فى منازلهم فلم يقبلوه . و (بنى حنيفة) فدعاهم فلم يكن أحد من العرب أقبح ردّا منهم . وأتى (بنى عامر) فاستهزءوا به.

ثم كان الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار وعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج وعرض عليهم الإسلام فآمنوا به وصدّقوه لأنهم وجدوه موافقا لما أخبرهم به أهل الكتاب والعلم من قومهم وقدموا المدينة وذكروا لقومهم ما رأوه ودعوهم إلى الإسلام وفشا فيهم ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان العام المقبل فوافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا و بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم و بعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم الإسلام و يتلو عليهم القرآن .

ثم تواعدوا مع رسول الله فلما كانت الليلة المعروفة وقد مضى ثلث الليل، خرجوا من رحالهم لميعاده يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة وهم ثلاثة وسبعون رجلا ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه العباس، فبعد أن تكلم وتكلموا فى أن يحموه حمايتهم لنسائهم وأبنائهم وما هم بخاذليه ولا مسلميه أبدا ، أخرجوا منهم اثنى عشر رجلا سماهم رسول الله نقباء وقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى (يعنى المسلمين) قالوا : نعم .

ثم عرفت جلة قريش الأمر ووجدت الخبر كما ظنت فخرجت فى طلب القوم ، فأدركت سعد بن عبادة والمنذر بن عمر وكلاهما كان نقيبا ، فأما المنذر فأعجز القوم وأما سعد فأخذوه إلى أن دخلوا به مكة يضربونه حتى استجار برجلين فأجاراه ، فانطلق ولحق القوم ، فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام وفى قومهم بقايا من سادات بنى سليم وشريف من أشرافهم كان اتخذ فى داره صنما من خشب ، فما زالوا به حتى كسره وأسلم .

علمت قريش بشيعة رسول الله وأنصاره وأدركت أنه مجمع على اللحاق بهم وتحققت أن أصحابه من المهاجرين سبقوه ، فاجتمعت فى دار الندوة تتشاور فيما تصنع فقالت نحبسه ولا نخرجه، ثم اتفقت على أن يقوم من كل

قبيلة فتى شاب جلد فيقتلونه جميعا ليتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم .

أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكيدهم هذا، فأمر على بن أبى طالب أن ينام على فراشه و يتوشح ببرده؛ ثم خرج وأرصدهم على باب منزله فطمس الله على أبصارهم فوضع على رءوسهم ترابا وأقاموا طول ليلهم، فلما أصبحوا خرج عليهم (على) وعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم نجا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مهاجرا من خوخة فى دار أبى بكر .

تعددت معجزاته فى هذه الهجرة؛ فمنها أنه هو وأبو بكر دخلا الغار الذى فى جبل ثور بأسفل مكة، فلما فقدته قريش اتبعته ومعها القائف فوقف عند الغار وقال : هنا انقطع الأثر و إذا بنسيج من العنكبوت على فم الغار فاطمأنوا لذلك ورجعوا. ومنها أن سراقة اتبعهما ليردهما فلما رآياه دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فساخت قوائم فرسه فى الأرض فنادى بالأمان وقال: يامحمد ادع الله أن يخلصنى ولك علىّ عهد أن أرد عنك الطلب فدعا له فخلص (فعل ذلك معه مرتين أو ثلاثا) فلما أراد أن يعود قال له رسول الله : كيف بك يا سراقة إذا سوّرت بسوارى كسرى ؟ قال : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم[1] .

ومنها أنه لما وصل المدينة مرّ بدور لبنى سالم، و بنى بياضة، و بنى ساعدة، و بنى حارثة . وكلما مرّ بدار لأحد من هؤلاء تلقاه رجال منها

(١) قال فى أسد الغابة فى ترجمة سراقة : فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة وألبسه إياها وقال له ارفع يديك وقل الله أكبر الحمد لله الذى سلبها من كسرى وألبسها سراقة .

يرغبون أن يقيم عندهم وتبادروا خطام الناقة اغتناما لبركته، فما زالوا يتبادرون والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم خلوا سبيلها فإنها مأمورة حتى أتت دار بنى مالك بن النجار فبركت حيث مسجد الرسول اليوم . ثم بقى على ظهرها ولم ينزل فقامت ومشت غير بعيد ولم يثنها، ثم التفتت إلى مكانها الأول فبركت واستقرت، ونزل رسول الله وحمل أبو أيوب رحله إلى داره فاشترى المِرْبَد من بنى النجار بعد أن وهبوه إياه فأبى قبوله، و بنى المسجد باللبن وعضادتاه الحجارة وسوره جذوع النخل وسقفه الجريد و بنى فيه المسلمون بغير أجر لوجه الله .

ثم وادع اليهود بكتاب صلح شرط لهم فيه مالهم وعليهم . وآخى بين المهاجرين والأنصار؛ بين جعفر بن أبى طالب وهو بالحبشة ومعاذ بن جبل. و بين أبى بكر الصديق وخارجة. و بين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك حتى آخى بين خمسة عشر من المهاجرين ومثلهم من الأنصار .

ثم فرضت الزكاة فاستلت ضغائن أهل الفاقة بما فرض لهم فى أموال الأغنياء وتخلصت الصدور من الأحقاد؛ وأشعرت بالمحبة، وأصبحت تساق بعامل الرحمة لرحمة أولئك البائسين، وأصبح الغنى مدافعا عن نفس الفقير والقوى آخذا بيد الضعيف .

ابتدأت الغزوات فى شهر صفر بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم؛ فخرج إلى غزوة (الأَبْوَاء) فى مائتين من أصحابه يريد قريشا. و (بُوَاط) لما بلغه أن عيرا لقريش ذاهبة إلى مكة . ثم غزوة (العشيرة) غازيا لقريش. و (بدر الأولى) وفى كل ذلك لم يلق حربا . و بعث فيما بينها بعوثا فمنها: بعث (حمزة) و بعث (عبيدة بن الحرث) متقاربين حتى اختلف فى أيهما كان الأول،

إلا أنها أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولم يكن بينهما و بين المشركين قتال) وبعث (سعد بن أبى وقاص) وبعث (عبد الله بن جحش) وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين [1] فلما قرأ الكتاب وجد فيه أن ينزل رحله بين مكة والطائف ، ولا يستكره أحدا فمضوا كلهم وضل لسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعير فتخلفا فى طلبه، فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة، وذلك آخر يوم من رجب فتحرج بعض المسلمين الشهر الحرام ثم اتفقوا . وقتل عمرو بن الحضرمى وأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وقدموا بالعير والأسيرين، فأنكر النبى صلى الله عليه وسلم فعلهم ذلك فى الشهر الحرام وما سرى عنهم حتى أنزل الله : "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به" . فقبض النبى صلى الله عليه وسلم الخمس وقسم الغنيمة وقبل الفداء فى الأسيرين وأسلم الحكم بن كيسان ورجع سعد وعتبة سالمين إلى المدينة ، وهذه أول غنيمة غنمت فى الإسلام وأول غنيمة خمست .

ثم صرفت القبلة عن بيت المقدس على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه المدينة، وخطب بذلك على المنبر وسمعه بعض الأنصار، ونزلت آية : "سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب" .

كان من قوة دهاء العقل وأصالة الحكم أن تُسرّ جماعة المشركين ذلك فى نفسها فلا تتقدم له بالسؤال عن صرف القبلة ولا تسمع منه ذلك الجواب الذى لقنه به بارئه، لأن فى سكوتها تكذيبه و بطلان حجته، وهم بذلك مغرمون

(١) كتمان الأوامر وفتحها بعد حركة الجند من مراكزها أو الأساطيل من الثغور مما يعد من محاسن السياسة الأوروبية الغامضة .

و إليه مضطرون، وفى السؤال عنه تصديق لخبره فى إظهار سر القهر الإلهى المحيط بهم الملجئ لهم على السؤال ولو كان فى ذلك تسجيل لوصف السفاهة عليهم ولكنهم فعلوه لأن الخبر السماوى والوعد النبوى لا يتخلفان قطعا .

هاج مقتل عمرو نفوس قريش، وشعر كل طرف بيوم بعد يومه، فأقام رسول الله بالمدينة إلى رمضان من السنة الثانية، ثم بلغه أن عيرا لقريش فيها أموال مقبلة من الشام إلى مكة معها ثلاثون أو أربعون رجلا ، عميدهم أبو سفيان ، فندب عليه السلام المسلمين إلى هذه العير وأمر بخروج كل من له ظهر حاضر ، ولم يحتفل فى الحشد لأنه لم يظن قتالا .

اتصل خروجه بأبى سفيان فاستنفر أهل مكة لعيرهم فنفروا ، و بعث رسول الله من يتحسس أخبار أبى سفيان وعلم أن القوم صاروا بين التسعمائة والألف ، فاستشار الأصحاب من المهاجرين والأنصار فقالوا وأحسنوا . قالوا : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك .

عرفت قريش بمقدم المسلمين أيضا ولكنهم مع كثرتهم هذه أصبحوا لا يقوون على مقاومتهم كأنما أصاب مكان الوجدان من قلوبهم شىء، ولم يكف أبا سفيان أنه تنكب بالعير إلى طريق الساحل ونجا ، بل جدّ فى حمل الناس على مذهبه، فقال: ما بالنا لا نرجع وقد نجونا بالعير. ورجع الأخنس ابن شريق بجميع بنى زهرة وكان مطاعا فيهم وقال : إنا خرجنا لنمنع أموالنا وقد نجت فارجعوا، فرجعوا ولم يشهد بدرا من قريش عدوى ولا زهرى.

ربما كان للقوم بنجاة العير مقنع، ولكن شدد أبو جهل وصار يستصرخ العرب و يهيج عواطف إحساساتهم يقول: لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثا وتهابنا العرب .

سبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ماء بدر وثبّطهم عنه مطر نزل وبله مما يليهم ، وأصاب مما يلى المسلمين دهس الوادى وأعانهم على السير، ثم نزل حيث أشار الحباب بن المنذر و بنوا حوضا فملئوه ، ثم بنوا له عريشا يكون فيه رسول الله ، ومشى بريهم مصارع القوم واحدا واحدا ، وكان أصحاب رسول الله ثلثمائة و بضعة عشر رجلا فيهم فارسان : الزبير ، والمقداد.

توافقت الفئتان وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع إلى العريش وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها ، فلما رآها قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم أَحِنْهم الغداة .

ما زال الكلام يستوثب الناس على الشر " وإن الحرب أولها الكلام " حتى قام عامر وصرخ واعمراه فحميت الحرب ، ونادت الرجال على الرجال والنبي يدعو و يلح و يقول فى دعائه : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض اللهم أنجز لى ما وعدتنى . ثم أخفق[1] ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر قد أتى نصر الله . ثم خرج يحرض الناس ورمى فى وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول: شاهت الوجوه . ثم تزاحفوا وجال القوم جولة هزم المشركون فيها ، وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا فيهم نحو العشرين من مشاهيرهم وأسر نحو العشرين رجلا من كبرائهم كما هو مذكور تفصيله فى كتب السير، واستشهد من المسلمين ثمانية : خمسة من المهاجرين وواحد من الأنصار وواحد من الأوس وواحد من الخزرج . وانجلت الحرب وقسمت الغنائم كما أمر الله . ورجع رسول الله إلى المدينة ودخلها لثمان بقين من رمضان .

(١) أخفق فلان حرك رأسه من نعاس .

حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له بعد أن دعاهم بالحجة وقطع العذر وأزال الشبه وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة كما قدمنا فأخذ السيف منهم ما أخذ .

ثم افتدت قريش أكثر أسارى بدر . وأمر بقتل كعب بن الأشرف من أكابر اليهود وكان من المحرضين على رسول الله فقتله الأوس ثم وقعت غزوات لم يلق فيها رسول الله حربا وهى غزوة (الكُدْر) و (السويق) و (ذى أمر) و (بحران) .

تظاهرت اليهود بالحسد لما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين و بغوا ونقضوا العهد وجاهروا بالكفر وقالوا وأساءوا الرد ونبذوا العهد فأنزل الله " و إما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء " فكانت غزوة (بنى قَيْنُقاع) سار إليهم رسول الله وكانوا فى طرف المدينة فى سبعمائة مقاتل منهم ثلثمائة دارع فحصرهم عليه السلام خمس عشرة ليلة لا يكلم أحدا منهم حتى نزلوا على حكمه فأمر بهم أن يقتلوا فشفع فيهم عبد الله بن أبىّ بن سلول فحقن رسول الله دماءهم ثم أجلاهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع ولحقوا بخيبر وأخذ صلى الله عليه وسلم الخمس من الغنائم ثم انصرف إلى المدينة وحضر الأضحى فصلى بالناس فى الصحراء وذبح بيده شاتين و يقال إنهما أول أضحيته (صلى الله عليه وسلم) .

وغنمت سرية زيد بن حارثة وظفرت بالعير والمال وأتت بفرات ابن حيان العجلى أسيرا فتعوذ بالإسلام وأسلم وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفا .

ثم استأذن الخزرج فى قتل (ابن ابى الحقيق) وكان نظير ابن الأشرف الذى قتله الأوس فى الكفر والعداوة فأذن لهم فقتلوه فى داره بخيبر. وما زال الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين فى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والذب عنه والنيل من أعدائه لايفعل أحد القبيلتين شيئا من ذلك إلا فعل الآخرون مثله .

ثم كانت غزوة (أحد) وكان الذى أهاجها وقعة (بدر) فقد مشى كثير ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم و إخوانهم بها فكلموا أبا سفيان ومن كان له فى تلك العير تجارة وسألوهم أن يعينوهم على حرب رسول الله ليدركوا الثأر .

اجتمعت قريش بأحابيشها[1] ومن أطاعها من قبائل (كنانة وتهامة) . وكان أبوسفيان قائد الناس والنساء بالدفوف يبكين قتلى بدر و يحرضن بذلك المشركين ، فلما علم بذلك رسول الله أشار على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا و إن جاءوا قاتلوهم على أفواه الأزقة وألح قوم من فضلاء المسلمين فلبس لامته وخرج وقال آخرون : يارسول الله إن شئت فاقعد . فقال : ماينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل. وخرج فى ألف من أصحابه فلما كانوا بين المدينة و (أحد) عاد عبد الله بن أبىّ بثلث الناس وكان من تبعه أهل النفاق و بقى رسول الله فى سبعمائة فيهم خمسون راميا فساروا حتى نزل الشعب من (أحد) وجعل ظهره وعسكره إليه والمشركون ثلاثة آلاف منهم سبعمائة دارع وفى المسلمين مائة وفرسان : فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفرس لأبى بردة. وقاتل المسلمون واشتد القتال وانهزمت

(١) أحابيش قريش جماعة تحالفوا بالله أنهم ليد على غيرهم وهم من جبل بأسفل مكة اسمه حبشى بضم فسكون .

قريش أولا ثم خلت الرماة عن مراكزهم وكر المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشفوا واستشهد منهم من أكرمه الله ووصل العدو إلى رسول الله وقاتل دونه مصعب بن عمير حامل الراية فقتل . و جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه وكسرت رَباعيته اليمنى السفلى بحجر وشقت شفته وكلم فى وجنته ووجهه فى أصول شعره ، وعلاه ابن قمئة بالسيف وهشمت البيضة فى رأسه وأُكبت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط فى بعض حفر هناك فأخذه (على) بيده واحتضنه (طلحة) حتى قام ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدرى ، ونشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه صلى الله عليه وسلم فانتزعهما (أبو عبيدة بن الجراح) فبذرت ثنيتاه وكر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المسلمين فقتلوا كلهم آخرهم (عمار بن يزيد) ثم قاتل (طلحة) حتى أجهد المشركين وأبو دجانة يلى النبى بظهره وتقع به النبلة فلا يتحرك . وانتهى (النضر بن أنس) إلى جماعة وقد دهشوا وقالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فما تصنعون فى الحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة ، وقتل (حمزة) عم النبى صلى الله عليه وسلم .

وهن المسلمون وظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل وإذا كعب ابن مالك الشاعر من بنى سلمة يبشر الناس فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشِّعب ثم جاء بماء فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ونهض فاستوى على صخرة من الجبل وقد حانت الصلاة فصلى بهم قعودا وغفر الله للمنهزمين ونزلت آية : "إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان" ثم صعد أبو سفيان الجبل وأطل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونادى : الحرب سجال يوم أحد ببدر وانصرف وهو يقول : موعدكم العام